سبيل غصوب
Sabyl Ghoussoub

بيروت
على ضفاف السّين

دار الجديد
Dar al Jadeed

دَار الجَدِيد | Dar al Jadeed

فيلا محسن سليم | حارة حريك | جبل لبنان
daraljadeedbeirut@gmail.com
w.w.w.dar-al-Jadeed.com

جميع الحقوق محفوظة لدار ستوك
©Éditions Stock, 2022

صدر هذا الكتاب بطبعته الفرنسيّة بعنوان:
Beyrouth-sur-Seine
نقله إلى العربيّة: قيصر غصوب

ترقيم دولي: 978-9953-11-241-1
الطبعة اللبنانية الأولى، ٢٠٢٤

حقوق صورة الغلاف وصور الداخل من مجموعة
سبيل غصوب الخاصّة
©Sabyl Ghoussoub

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schéhadé, bénéficie du soutien du Ministère de l'Europe et des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France.

Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut français.

إلى أبي وأمّي.
إلى أخي، لــولاه ما أبصــرتُ النــور أبدًا.

«أريـد أن «أُخَتْيـرَ» فـي لبنـان وأن أسـبحَ فـي بحـره حتّـى آخـر يـومٍ مـن حياتـي».

أمي

«قـد أدفَـنُ فـي مقبـرة «الپــير لاشـيز» المـكان الوحيـدِ الّـذي سأشـعرُ فيـه بأنَّنـي فـي بيتـي».

أبي

الشّخصيّات

قيصـر، أبي.
أميـن، أخـوه الصّغيـــر.
سلمى، أخته الصّغيـرة.

حنان، أمّي.
الياس، أخوهــا الكبيــر.
حبيب، أخوها الصّغـير.

يــالا، أختي الكبيـــرة.

الجزء الأوّل

أبي وأمّي وباريس | ٢٠٢٠

سألني أبي: «هل تريد أن أرويَ لكَ قصَّةَ حياتي بالعربيّة أم بالفرنسيّة؟» ثمّ أضاف: «هل تفهمُ العربيّة؟» وقد كان هو معلِّمي مُدَّة ثلاثِ سنواتٍ طوالٍ وكنتُ أعيشُ في كلِّ أمثولةٍ من أمثولاته جلجلةً لا نهاية لها.

وعلى إثرِ هذا الكلام علَّقتُ زِرَّ التّسجيلِ على قميص بيجامَتِهِ الّتي يرتديها منذ أن كنتُ في الخامسةِ من عمري. بيجامةٌ مرتَّقَةٌ عِدَّةَ مرّاتٍ بأناملِ خيّاطين أكرادٍ وعراقيين وكوريِّين؛ بعضهم وضع أيضًا خِرقًا من جلدٍ لسدِّ الثّقوب. أمّا أمّي، فقد اشترت أكثر من دزِّينة منها جديدة لكنّه أبى أن يلبَس غيرها، هو الّذي اشتراها من لبنان. بيجامةٌ بحريَّةُ اللّون مؤلّفة من قميص وبنطالٍ قصير جدًّا.

كان يجلِسُ على كنبةٍ وأمامه منظرٌ خلّاب لباريس يتوسّطه برج إيفل. استأجر أهلي شقةً في الطّابق الثّاني عشر من بنايةٍ بسبعةَ عشرَ طابقًا في الدّائرة الخامسةَ عشرةَ؛ انتقلوا عدّة مرات من طابق إلى آخر: من السّادس إلى التّاسع إلى الخامسَ عشرَ وأخيرًا إلى الثّاني عشر. كانوا في كلِّ مرَّة يسكنون في شقَّة مؤلَّفَةٍ من ثلاث غرف في آخر المَمَرّ عند خروجك من المصعد يمينًا أو يسارًا. تُقَدَّرُ مساحة شقتهم بسبعةٍ وستِّين مترًا مربعًا مؤلَّفة من دار وغرفتي نوم وحمّام. تسمِّيها أمي «قفص العصافير» لصغر الغرف المتداخلة بعضها

فـي بعـض. كمـا أنّ للشّـقة شـرفتين ضيِّقتيـن مـن الجهتيـن يزرعهمـا أهلـي لتبـدوا كأنهمـا جُنَينـة قريتهمـا فـي لبنـان. نجدُ في هاتيـن الجنينتيـن أشـجارَ الحامـض والزّيتـون والأفنـدي والبنـدورة الكرزيَّـة والخيـار والنّعنـاع؛ كلُّ هـذا فـي مسـاحة صغيـرة جـدًّا. ولكـن عندمـا تسـطع الشّـمس فـي الشّـرفة، وتكـون السّـماء زرقـاء، تظـنُّ أنَّنـا مقيمـون فـي مـكان مـا، جنوبًـا حيـث الأشـعة تداعـبُ اللّيمـون الحامـض.

إنَّ هـذه الجنينـة فخـر أبـي الكبيـر. تلتمـعُ عينـاه عندمـا نتنـاول الغـداء معًـا، وتكـون السّـلطة مـن بنـدورة جنينتـه. كذلـك يحـبّ الحَمـام حيـن يبتنـي عشّـه فـي إحـدى الشّـجرات، وهـو مـا تكرهـه أُمّـي، لا شـيء يزعجهـا فـي العالـم إلّا هـذا الحمـام، «لأنّـه يحمِـلُ كلَّ أوبئـةِ العالـم». تـردّد أُمّـي «وأيضًـا يوسّـخ شـرفتي وشـبابيكي». غيـر أنّ لأبـي رأيًـا آخـر: مـرَّة فـي الأسـبوع يشـتري الخبـز مـن المخبـز، يقطِّعـه بالمقـص إربًـا وهـو جالـسٌ فـي الـدّار، ثـمّ يضعـه فـي كيـس بلاسـتيكيٍّ، ومـن بعـد ذلـك يقصِـدُ المتـرو (قطـار الأنفـاق)، ويرمـي الفُتـات علـى الأرض، كمشـة تلـو كمشـة، فيسـرع الحمـام إليـه.

مـرةٌ كنـتُ شـاهدًا علـى هـذا المشـهد، كان أبـي يرتـدي بدلـةً مقطَّعـة بمربّعـات صغيـرة سـوداء، والحمـام يطيـر مشـكِّلًا دائـرة حولـه. أمّـا المشـاة فكانـوا مبهوريـن بهـذه الرّؤيـة، أمّـا هـو فبـدا كأنّـه مـن عبـدة النّـار: مجوسـيٌّ أو نبـيّ.

هـو لا ينفـكُّ يلعـب بـزرِّ التّسـجيل لأنّـه يكـره الـكلام المسـجَّل، ولكـن نـزولًا عنـد طلـب ابنـه قبـل. أمّـا والدتـي فهـي فـي المبطـخ

تُحضّـرُ لـي الفطـور. ففـي كلِّ مـرَّة أزورهـا، تقـدّم لـي الطّعـام، وفـي ظنّهـا أنّنـي هكـذا سـأمكث طويـلًا فـي شـقَّتها. لا تكـفّ عـن الـكلام، أمّـا نحـن فـلا نفهـم كلمـة مـن كلامهـا.

– هذا جنون لكثرة ما تتكلم أمُّك! هل تسجّل ما أقوله الآن؟

– نعم يا أبي.

– جيّد. والآن ماذا تريد أن أحكيَ لك؟

كنـت قـد حضَّـرت لائحـة بالأسـئلة الصّريحـة ولكننـي أمامـه أفقـد توازنـي كمـا فـي كلّ مـرَّة.

– لا أعرف يا أبي.

– لا تعـرف؟ كيـف هـذا لا تعـرف؟ تعلّـق زرّ التّسـجيل علـى قميصـي ولا تعـرف مـاذا تريـد أن أقـول لـك؟ هـل تريـد أن أقـوم بالعمـل مكانـك؟ أعطنـي دفتـرك لأكتـب لـك الأسـئلة.

– طيِّـب... طيِّـب... أعـرف، أريـد أن تخبرنـي عـن وصولـك إلـى باريـس.

– وصلتُ بالطّائرة ونزلت في مطار أورلي.

– يا أبي!

– نعم؟

– بدون مزح.

– أنـا لا أمـزح، وصلـتُ إلـى مطـار أورلـي مـع أمِّـك فـي الحقيبـة، وقتهـا كانـت الحقيبـة تسـعها.

– «قيصر سدّ بوزك»! تصرخ أُمّي من المطبخ.

– تعـرف يـا سـبيل، يتابـع أبـي، اتصلـتُ بالنّجّـار أمـس ليأتـيَ ويوسِّـعَ بـاب المدخـل لأنّ أمّـك لـم يعـد بمقدورهـا أن تدخـل فقـد بدنـت وهـي مجبـورة الآن أن تدخـل بجانبهـا.

تدخـل أُمّـي الـدّار حاملـة صينيـة عليهـا اللّبنـة والزّيتـون الأخضـر والخبـز السّـاخن.

– آه! من أجل ابنك تقدّمين الأشياء كما يجب!

– هل تغار يا قيصر؟

إنّ أبـي يـأكل فطـوره بعـد أن يضعـه علـى طرّاحـةٍ قدّامـه. يتألّـف فطـوره مـن الخبـز الكامـل وجبنـة «البقـرة الضّاحكـة». علـى فكـرة، فـي البـراد عشـرات مـن علـب الجبنـة الكيميائيـة. «انظـر إلـى أبيـك لقـد اشـترى كمّيـات مـن هـذه الجبنـة وكأنّ الحـرب سـتقعُ غـدًا!» تكـرِّر أُمّـي دائمًـا قولهـا وهـي أمـام البـرَّاد المفتـوح. إنّ أهلـي يحبّـون تـرداد الطّـرف نفسـها وأنـا لا أفهـم أبـدًا لمـاذا: هـل بـدأوا يضيِّعـون أو للـذّة فـي الإعـادة؟ ثـمّ أنهـضُ لأعلّـق زرّ التّسـجيل علـى قميـص نـوم والدتـي. أحـاول أن أطـرح عليهـا سـؤالًا بيـن نشـاطين تقـوم بهمـا. إنّ أُمّـي صغيـرة، صغيـرة جـدًّا وكمـا هـي عـادة النّـاس الصّغـار القامـة فهـي كثيـرة الحركـة. تذكّرنـي بنيكـولا سـاركوزي. هـي حاليًّـا تبحـث عـن هاتفهـا الّـذي يـرنّ فـي الشّـقة كلّهـا.

«بحبّـك يـا لبنـان يـا وطنـي بحبّـك بشـمالك بجنوبـك بسـهلك بحبّـك» إن رنيـن هاتفهـا ليـس سـوى «بحبّـك يـا لبنـان» أغنيـة سـفيرة النّجـوم السّـيدة فيـروز، وهـي كنايـة عـن أنيـنٍ حزيـنٍ

يُزعـج أبـي ويُزعجنـي إلـى أقصـى الدرجـات. والدتـي لـم تعثـر بعـد علـى هاتفها النّقّـال الّـذي يـدقّ الآن دون انقطـاع، أظـنّ أنّهـا تلقّـت رسـائل علـى واتـس أبّهـا العائلـي الّـذي أسـمته عـن عمـد وإصـرار «لبنـان». هـذه الجمعيَّـة مؤلّفـةٌ مـن نحـو خمسـين عضوًا: إخوتهـا وأولادهـا وأولاد أعمامهـا وعمّاتهـا مـن الدّرجـة الأولـى والثّانيـة وحتـى الثّالثّـة، مـن لبنـان والولايـات المتحـدة وفرنسـا، وأقربـاءَ آخريـن وكذلـك بعـض الأشـخاص الآخريـن القريبيـن أو البعيديـن منهـا، كلّهـم يشـاركون فـي الحـوارات سـوى واحـد: أبـي الّـذي لا يملـك «سـمارت فـون»؛ إنّ هـذا العالـم الجميـل لا يتوقّـف عـن التّواصـل. يتراسـلون الصّـورَ المأخـوذةَ بيـن النّباتـات والأشـجار والمناظـر، صـورًا قديمـة للعائلـة وأفلامًـا فكاهيّـة لبنانيّـة أو أغنيـات رديئـة مصـوّرة.

تثـارُ أشـجانهم عندمـا يرسـل أحـد أقاربهـم الّـذي يسـكن لبنـان صـورة قريتهـم، فيمضـون وقتهـم يتذكّـرون هـذا البلـد الجميـل قبـل الحـرب، أو تلـك الأزهـار الّتـي كانـت تعلـو فـوق الطّريـق السّـريع، أو ذاك القطـار الّـذي كان يحـاذي البحـر مـن الشّـمال إلـى الجنـوب، وأحيانًـا يظهـر فيلـم قصيـر مدسـوس، لا أعـرف مـن أرسـله. أنـا شـخصيًّا أُسْـكِتُ هـذا الواتـس أبّ منـذ خمـس سـنوات.

أتبـع والدتـي إلـى الـدّار حيـث يلاحـظ أبـي كاحلـيّ العارييـن: «ألـم تلبـس كلسـات؟!» يقـول لـي. إنّ حكايـة الجـوارب حكايـة طويلـة عنـد رجـال عائلتـي. فهـم لا يفهمـون كيـف لرجـلٍ أن يلبس حـذاءً دون جـوارب. أذكـر يـوم دُفِـنَ أميـن فـي لبنـان وهـو أخـو

أبـي الأصغـر، كنـت قـد تجـرّأت وارتديـت بدلـة وحـذاءً ولكـن دون كلسـات. لاحـظ خالـي حبيـب ذلـك فوشـوش أبـي الّـذي ترجّانـي أن أرجِـع إلـى المنـزل وألبـسَ الجـوارب. وافقتـه الأمـر، وكنـت متأكـدًا أنّـه لـن ينظـر إلـى قدميَّ ثانيـة، ففـي رأسـه همـوم أكبـر. ولكـنَّ خالـي حبيبًـا لاحـظ أنّنـي لـم آبـه لرجـاء أبـي، فقـام وبـدأ يصـرخ فـي وسـط صالـون التّعـازي: «! مـا بتسـتحي تعمـل هيـك مـع بيّـك بهيـك وقـت؟!» فأجبتـه: «إنّكـم متخلّفـون، تُقيّدكـم تقاليدكـم الباليـة». مـن يرتـدي اليـوم بـدلات سـوداء فـي المآتـم؟ إنّكـم تشـبهون «المافيَوييـن الصّقلّييـن»؛ ولكننـي عُـدْتُ وخَضَعْـت لإرادة والـدي ولبسـت الجـوارب كـي لا أضايقـه فـي ضيعتـه.

- إنّ ابنكِ يريد أن نخبِرَه عن وصولنا إلى باريس.
- ولماذا تسجّل كلامنا. ما غايتك؟
- هـو كتـاب. ألا تعرفيـن ابنـكِ؟ الغايـة منـه أن نبكـي علـى هـذه الحكاية.
- في أي سنة وصلنا إلى باريس يا قيصر؟
- سنة ١٩٧٤.
- لا، سنة ١٩٧٥.
- بالتّأكيد لا، سنة ١٩٧٤.
- أيلول ١٩٧٥.
- أيلول ١٩٧٤.

زواج أهلي في لبنان | ١٩٧٥

وصل أهلي إلى باريس في أيلول عام ١٩٧٥ عروسان تزوّجا للتّوِّ في كنيسة كفرعبيدا، (ساحل لبنان) ضيعة أمّي. كان زواجهما بسيطًا، تحيطُ بهما مجموعة من الأقارب «اختاروهما على الطّبليّة». اختارت أمّي شاهديْها أخويها الياس وحبيبًا، أمّا أبي فقد اختار أخته سلمى وشاعرًا لبنانيّا، جوزف حرب، كان من أعزّ أصدقائه يومها (أكتب «يومها» لأنّه منذ ذاك اليوم وهو يغيّر كلَّ ثلاث سنوات «أعزّ أصدقائه» فهو لم يعد يتكلّم معه لأسباب يجهلها الأخير، وهكذا دواليك).

ارتدت أمّي فستانًا من الحرير ورديَّ اللّون، خاطته لها خالاتها، أمّا أبي فكان على هيئة مطرب تركيٍّ شيوعي: شعره طويل بشوارب كثّة وبنطال عريضٍ عُرف يومها برِجْلِ الفيل. صُوَرُ زواجِهما تُشْبه الأيقونات. في إحدى الصّور يبدوان جالسين على المقعد الخلفي داخل سيارة «كاديلاك» مستأجرة للمناسبة. أدارا وجهيهما نحو المصوّر. نرى رأسيهما من خلال الزّجاج الخلفي للسّيارة الأميركيَّة. مشهدٌ شبيه بأفلام قطّاع الطّرق الإيطالية النّيويوركيَّة. في صورة أخرى تبدو أمّي جالسةً على أريكةٍ قماشُها مزهَّرٌ، وخلفها كثير من الباقات لا أعرفُ أسماء أزهارها.

تبدو أمّي في هذه الصّور زهرةً بين الزّهور. أعترفُ أنّها في تلك الصور تبدو شابّة باهرةَ الجمال، ببنطال «الدّجينس» أم بفستان أم بـ«مايو». متألّقة تشبه ممثلةً إيطاليَّة؛ أفهم الآن

لماذا وقع أبي في حبّها. أنا أيضًا كنت سأحذو حَذوه وأقصِدُ شبّاكها كلّ يومٍ منشدًا لها أشعاري بالعربيّة. اعترفت لي أمّي بأنّها كانت تجده (قبل أن تسمعه ينشد قصائده) «غليظًا وقبيحًا بعض الشّيء». ولكنّها حين أصغت إلى كلامه، كلام الحب، ذابت. هي لا تزال تذكرُ هاتين القصيدتين:

«لو كان اللّه عادلًا | لكان وهب الأرضَ فصلين | كعينيكِ»

«أخذتُ يديها بين يديَّ | وحدّقت في البحر | لو لم يكن البحر هنا | لكنُتُ غرقت...».

كانت تتخيّل أنّها ستعيش وتموت مع هذا الشّاعر. وأبي لم يكن شاعرًا فحسب، بل كاتبًا مسرحيًّا ومُخرجًا وصحافيًّا. لا يهدأ أبدًا. عندما كان صغيرًا منعه أبوه من العزف على البيانو (كان الاعتقاد السّائد أن هذه الآلة حكرٌ على البنات) فكوّع نحو الكلمات ليؤلّف موسيقاه. فعلتِ الكتب فعلها، قَلَعَتْه من عائلته القرويّة، التّقليديّة المارونيّة. فتحت له القراءة آفاق بيروت، فما إن غَزَتْهُ العشرون حتى بدأتِ الصّحف تتكلّم عنه كمؤلّف ومخرج واعد. اكتشفت هذه الأمور حين وجدتُ على «الكوداك» الصّغيرة الّتي تحتوي على صورٍ بالأبيض والأسودِ مربّعة الشّكل عن «البروفات» الّتي أدارها. بسببها تعرّفت إلى خالي الصّغير، حبيب، الّذي طلب منه أبي أن يلعب دور السّكران. كان أبي يتخَلْوَع في كلّ الاتجاهات. يدوّر على كلّ الحِيَل لإدارة الممثلين. حينًا يركع وحينًا يقف على الطّاولة.

بـدا عملاقًـا فـي هـذه الصّـور، مـع أنّ قامتـه لا تتعـدّى المتـر والاثنيــن والسّــبعين.

بعـد أن قـالا للكاهـن نعـم، قـرّر والـداي أن يعيشـا سـنتين فـي باريـس. كان أبـي يسـعى لنيـل دكتـوراه فـي المسـرح وأخـرى فـي الآداب العربيّـة مـن جامعـة السّـوربون. أمّـي الهائمـة بـه رافقتـه علـى أمـل أن يعـودا بعدهـا إلـى لبنـان ويشـتريا منـزلًا فـي بيروت.

الياس في باريس | ١٩٧٤

لـم يكـن أهلـي وحدهـم فـي باريـس. منـذ سـنة كان اليـاس، خالـي الكبيـر يعيـش فـي غرفـة متواضعـة واقعـة فـي الدّائـرة الخامسـة قـرب جامعــة السّــوربون عريــن المتضامنيــن، ومــن كلّ أقطــار المعمـورة مـع قضايـا العالـم الثّالـث.

وجـدتُ بعـض الصّـور لاليـاس يلبَـسُ قميصًـا مخططـة وبنطـالًا واسـعًا عنـد الثَّنيـة ونظّـارات ماركـة «راي بـان» علـى أنفـه، وهـو جالــس فــي مقهًــى أو ممــدَّدٌ علــى أدراج كنيســة ســان ـ إتيــان دي مـون قـرب البانثيـون، فـي المـكان نفسـه حيـث كان جيـل الشّـخصية الرّئيسـيّة فـي فيلـم «ميـد نايـت فـي باريـس» لـوودي ألان، ينتظـرُ العربـة الّتـي سـتعيده إلـى زمـن مضـى وتنقلـه إلـى باريـس أيـام دالـي وهمنغـواي.

أمّـا أنـا ففـي كلِّ مـرّة أمـرّ فـي هـذا المـكان، أتمنّـى لـو أنّ حوذيًّـا يلقـي القبـض علـيّ ليعيدنـي إلـى باريـس زمـن أهلـي.

أتساءل مَن الّذي أخذ لالياس هذه الصّور. ربما عشيقته. من المؤكّد أنها ليستْ أمّي، كونها لم تكن قد وصلت إلى فرنسا عام ١٩٧٤.

وقعتُ ذات مرّةٍ على رسالة صغيرة كتبتها يوم مغادرته لبنان بعد أن رافقته إلى مطار بيروت.

عزيزي الياس،

أنا بانتظار اتصالك بفارغ الصّبر. كلُّنا بخير هنا. لم يتغيّر عليّ شيء سوى غيابك، لكن تأكّد أنّنا مسرورون ومرتاحون. سأخبرك ماذا حدث بعد رحيلك: ودَّعْتَنا ومَشَيْت. أَعرِفُ أنّني لم أكن مرتاحةً قط، وبصراحة كنت خائفة وقلبي يخفق. كنت واقفةً بين قيصر وحبيب ننظر إليك وأنا على أعصابي، ثمّ خرجنا إلى شرفة المطار وأنت تأخَّرت في ركوب الطّائرة، وهذا ما جعلني أعيش دقائق رهيبةً، خاصةً وأنّ قيصرَ وحبيبًا بدآ يسخران منّي، وأخيرًا رأيناك ورأينا يدك تلوِّح لنا حتّى اللّحظة الأخيرة. تمنّيتُ أن تقلع الطّائرة، وحين أقلعت بكى أبي قليلًا.

وحين علت الطّائرة في الجوّ، ارتحْتُ وسُرِرتُ كثيرًا لأنّك خلّصت وانتهيت من كلّ هذه الأخبار الصّغيرة في لبنان، وقبل مغادرة المطار خابرنا أمّي، وبدورها فرحت. أرجو أن يدوم مكوثك هناك، وأن تخبرني بكل ما يحدث لك.

أحبّك.

أُختك

بعد عدَّة أسابيع دسّت أوراقًا نقديّة داخل ظرف ليشتري «دجنسات» وأحذية «كاوبوي» ودعمتها بلائحة من الأسطوانات ٣٣ دورة الكبيرة الحجم لشرائها لها من باريس:

داليدا | سلفاتور أدامو | أنريكو ماسياس | ليو فريه | نينو دي مورسيا | جورج براسنس | ميراي ماتيو.

الياس، الّذي كان يجاهر بنبرةٍ عالية وقويَّة أنّه قريب من الفلسطينيّين، فضّل الهروب من لبنان بعد طرده من إدارة الجامعة اللّبنانيّة الكتائبيَّة؛ والكتائب حزب مسيحيّ تأسَّس في الثّلاثينات «أستوحى» مبادِئه من الأحزاب الفاشيَّة الأوروبيَّة. مؤسسه بيار الجميّل وصف حركته هذه خلال مقابلة مع محطّة تلفزيونيَّة فرنسيّة قائلًا: «إنّه حزب لبنانيّ، أبصر النّور للدّفاع عن القضية اللّبنانيّة. نحن مع كلّ ما هو لبنانيّ وضدّ كلّ ما يُضير القضية اللّبنانيّة من قريب أو بعيد». وقد تلا هذا الكلام تحقيق متلفز عن تدريبٍ عسكريٍّ لشباب متطوّعين من حدّادين وسنكريين وحتى من فنّانين كانوا كلّهم منتمين إلى هذا الحزب. كان الفيديو يشبه لقطاتٍ مضحكةً كون المتدرِّبين الجدد يفشلون عند القيام بتمريناتهم، وهم يدفنون رؤوسهم في التّراب. هؤلاء الكتائبيُّون أنفسهم زوّروا نتائج الياس طالبين منه أن يُحَضِّر حقائبه ويهاجر. عند وصوله إلى باريس، تسجّل الياس في ستّ كليات مختلفة: في الحقوق، في التّاريخ، في الآداب الشّرقيّة، في العلوم السّياسية، في الهندسة، وأخيرًا في الآداب الحديثة. لا أفهم

كيف تمكّن الياس من مراكمة كلّ هذه الكلّيات، ولكنّني وجدتُ في أوراقِ أمّه كُلَّ بطاقاته الطّالبيَّة. كما وجدتُ بينها بطاقة أخرى: بطاقة الحزب الشّيوعيّ الفرنسيّ. كان يمضي أغلبَ أوقاته في مكاتب هذا الحزب، يحضّر للثّورة، ثورته هي معقدُ كلِّ آماله: تحرير فلسطين المحتلّة. كان المناضلون الفرنسيّون، رجالًا ونساءً يعبُدونه. كاريزميٌّ، وسيمٌ يتكلّم الفرنسيّة بلهجة لبنانيّة «بتتّاكل». وهو الوحيد العارف بِشؤون «الجيوبوليتيكا» الشرق أوسطيّة. سريعًا بدأ يُصحّح للحزب بياناته الصّحفية الّتي تتناول القضية اللّبنانيّة والنّزاع الإسرائيليّ الفلسطينيّ. وفي وقت فراغه يقرأ ماركس وباكونين ولينين. يدوّن ملاحظات قراءاته وأفكاره في ورقة: «كلُّ المجتمعات المتقدّمة لها أساس اجتماعي واحد: العائلة الأحادية و الزّواج، ورباط الزّوجين، والأولاد. البلدان الحديثة تمنع تعدّد الزّيجات تطبيقًا لقانون المستعمِر... المرأة تطالبُ بحرّيتها لتحقيق ذاتها، ثُمَّ إنّ القاصرةَ الّتي تواعِدُ الرّجل تعتبر نفسها راشدة. ومن هنا يشعر الرّجل بارتباك يجبره على طرح أسئلة حول الزّواج نفسه.

هذا اعتراف بكون المرأة راشدة وحرّة وثورية إلى أقصى الحدود، وبِأن تحريرَ المرأة يدعونا إلى تحريرها اقتصاديًّا قبل أي شيء.

في السّرير، كما أخبرتني إحدى عشيقاته، بعد أربعين سنة، كان إلهًا. ما زالت تذكر تفاصيل ليلة الحبّ تلك: «كان ناعمًا،

مُلمًّا فـي هـذا الميـدان».

كانـت كلّ واحـدة مـن عشـيقاته تحلـم بشـيء واحـد، تمضيـة ليلـةٍ ثانيـةٍ معـه وثالثـةٍ لتصبـح أخيـرًا رفيقتـه الرّسـمية. لـم يملـك الوقـت لذلـك. كان يحـبّ النّسـاء، كان حبّهـن علـى رأس قائمـة أولويّاتـه، يراسِـلُهنّ مـدّة طويلـة، كيـف لا؟ وهـو يطمَـح إلـى الثّـورة، والثّـورة تقـف فـي وجـه المغامـرات العاطفيـة. «الغـرام للبورجوازييـن!» كتـب ذات مـرّة بخـط عريـض فـي أحـد دفاتـره إلـى جانـب أفـكار أخـرى عـن «مـاذا يعنـي أن تكـون شـيوعيًّا؟»

«تحليل كيمياويّ للمرأة»:

المرأة نموذجًا:

ـ ميزات جسدية:

تلتهـب مـن لا شـيء | تبـرد فـي لحظـة | تـذوب إذا عُوملـت بلباقـة | هـي مريـرة جـدًّا إن لـم تُعامـل برِقّـة.

ـ ميزات كيمياوية:

تعطـي للذّهـب و المـال والبلاتيـن وكلّ أنـواع الأحجـار الثّمينـة أهمِّيّـة كبـرى | ردّ فعلهـا شـرس إن تُركَـت وحدَهـا | يتبـدّل لونُهـا وقـد تميـلُ إلـى الزبرجـدي إن جلَسَـتْ جوارهـا امـرأةٌ أجمـل.

ـ أمكنتها المفضّلة:

في أي مكان يجتمع فيه الرّجال.

ـ وظائفها:

الجمـال بفروعـه | مفيـدةٌ، تحفّـزُ إلـى طـردِ المزاجـات العكـرة |

ممتازة في إعادة توزيع الثّروة | فعّالة في تقليص المداخيل.

تحذير:

متفجّرة! التّعاطي معها بحذر!

«عودوا إلى بلادكم!» | باريس | ١٩٧٥

درَسَ أهلي الفرنسيّة في المدرسة. أمّي تجيد الفرنسيّة، أمّا أبي فأقل. يُصرِّف الأفعال بصيغة المصدر، وينهي جمله بكلمات لبنانيّة: «أنا أشرب القهوة كتير بكّير أنا» يعني «أنا أشرب القهوة باكرًا».

بعد أن نام أهلي بعض اللّيالي في الفندق، وفي المدينة الجامعيِّة في بيت لبنان، وَجَدا شقةً في شارع دي شوازي عند «الصّينيّين» كما تقول أمّي. وقد رجعتْ إلى هذه البناية لتلتقط صورًا لباب المدخل الّذي يزيزق، وللدّرج الخشبي الّذي يتفتفت، وهاتف البناية الدّاخلي المحطّم، وترسل الصّور إليَّ بالواتس أبّ.

فهي لا تهدأ، تتابع حواراتنا المسجّلة بالتّعليق والإضافات والملاحظات عبر الواتس أبّ. بعد تسلُّمي الصّور كتَبَتْ: «سكنّا هنا يا سبيل!» كأنّها تؤكِّد أنّها بدأَتْ من لا شيء، أو تقريبًا في هذه المدينة.

كان جدّي لأبي قد أعطاهما حفنةً من المال قبل سفرهما. وهو الّذي اغتنى في غانا «بطريقة ملتوية» كما ذكر لي

أبـي: إنَّ جـدَّك هـو الوحيـد مـن اللّبنانيّيـن فـي أفريقيـا الّـذي خسـر مـن المـال أكثـر ممّـا ربـح فـي تلـك المغامـرة الإفريقيـة، «كنـتَ سـتحبُّه كثيـرًا» أضافـت أمّـي. مـاتَ بعـد أيّـامٍ مـن ولادتـي كأنّـه كان ينتظـر أن يتأكّـد أنّنـي بصحّـة جيّـدة ثـمّ يرحـل مـن هـذا العالـم. صورتـان همـا كلّ مـا بقـي منـه. واحـدة بجلّابيّـة مقلّمـةٍ وحـذاء مـن الجلـد الأسـود. شـعره طويـل أشـيب ممشّـط إلـى الـوراء، بشَـرته بيضـاء وهـو متكـئ علـى سـيارة مـن ذلـك الزّمـن، بـدت لـي فخمـة وملكـه. يبتسـم أمـام الكاميـرا. يبـدو سـعيدًا. أمّـا الصّـورة الثّانيـة فبـدا فيهـا مسـنًّا عرفتـه بالـكاد كأنّـه رجـل آخـر، يلبَـس مِبـذلًا وعلـى وجهـهِ بـدت ملامـحُ مشـقّات الحيـاة. حكـت لـي أمّـي أنّـه فـي آخـر حياتـه لـم يقُـم بـأيّ شـيءٍ سـوى شـربِ البيـرة مـن الصّبـاح إلـى المسـاء حتّـى صـار مُدمنًـا.

مـا إن حطّـتِ الحقائـبُ فـي شـقّتهما الجديـدة حتـى بـدأ الجـدار يهتـزّ. ضربـاتٌ رجراجـة تلعلـع وامـرأة تصـرخ: «عـودوا مـن حيـث أتيتـم!» ارتعبـت أمّـي وأجهشـت. أمّـا أبـي فـكان بـودّه أن يضحـك لكنّـه تمالـك خوفًـا مـن ألّا تتحمّـل أمّـي مزاجـه، ومـن يـدري؟ قـد تصفعـه! فغمرهـا كـي تهـدأ، وظلّـت الضّربـات تتوالـى بقـوّة أكبـر، فخافـت أمّـي مـن انهيـار الجـدار؛ إذ لاحظـت مـن زيارتهـا الأولـى ضحالـةَ سـماكته وهـي لـم تفهـم كيـف لهـذا المبنـى ألّا ينهـار. «عـودوا مـن حيـث جئتـم!» تَعِـرُّ الجـارة حـدّ تمزيـق حبالهـا الصّوتيـة، وتحتمـي أمّـي بصـدر أبـي وهـي تبربـر «بـدّي ماما وبـدّي بابـا» ثـمّ عـلا صوتهـا.

- بدّي أبي وأمّي!
- عودوا من حيث جئتم!
- أريد أبي وأمّي!
- عودوا من حيث جئتم!
- أريد أبي وأمّي!
- عودوا من حيث جئتم!

لم تتوقّف الجارة عن العِرار. ليلة من أصل ثلاث، وطوال السّنة حين عاش أهلي «عند الصّينيّين» ظلّت هذه المرأة تحضّهم على العودة من حيث أتوا. أحيانًا في الممشى كان أهلي يصادفون زوجها الّذي بدأ يعتذر عن عدم قدرته على فعل أي شيء، كون زوجته مجنونة. اليوم، بعد مرور سنواتٍ على هذه الواقعة، أفكّر أنّ الجارة كانت بلا شكّ على حقّ حين نصحتهم بالعودة من حيث أتوا.

بداية الحرب في لبنان | ١٩٧٥

كان أهلي ما يزالون في لبنان يوم ١٣ نيسان ١٩٧٥ عندما مرّ باصٌ في حيٍّ مسيحيّ ينقل فلسطينيّين فأطلق الكتائبيّون عليهم النّار. وكان هذا الحادث قد جرى في اليوم نفسه بعد أن انهمر الرّصاص على كنيسة حيث قُتل أحدُ حرّاس بيار الجميّل. وكان أبي يحضّر لتقديم مسرحيته في بيروت فتأجّلَت. هكذا في كلّ مرّة كان أبي يستعدّ لتقديم مسرحيةٍ، تقع

حـوادث تمنعـه مـن تقديمهـا. ذات مسـاء بـدأ الجمهـور يتضـارب والقصـة ذاتهـا تتكـرر: أنصـار الفلسـطينيّين ضـدّ خصومهـم، وأبـي فـي وسـطهم يريـد تخبيـط كلّ العالـم.

هـذا الحـدث يُعتبـر اليـوم بدايـة الحـرب فـي لبنـان، أمّـا يـوم وقـع فاعتُبـرَ إضافـةً طفيفـةً إلـى يوميّـات العنـف. فالتّراشـق بالرّصـاص والنّزاعـات خبـز لبنـان اليومـي مـذ تزعّـم ياسـر عرفـات منظمـة التّحريـر الفلسـطينيّة، واسـتقرّت فـي البلـد مـع محاربيهـا وفدائييها إثـرَ طردِهـم مـن الأردنّ.

إن اتفـاق القاهـرة السّـرّي الموقّـع فـي ٣ تشـرين الثّانـي ١٩٦٩ بين وفـد يترأسُـه العمـاد إميـل بسـتاني قائـد الجيـش اللّبنانـيّ ومنظمة التّحريـر الفلسـطينيّة، منـح المقاومـة الفلسـطينيّة حـقّ الاعتـداء مـن الأراضـي اللبنانيّـة وبـذا شـرّع وجودهـا كجيـشٍ وانتشـرت الفوضـى فـي البلـد.

طرحـتُ السّـؤال علـى أبـي، فهـو لـم يتـرك مجلّـدًا عـن تاريـخ لبنـان يعتـب عليـه: «لمـاذا قَبِـل العمـاد بسـتاني توقيـع هـذا الاتفـاق؟» كان جوابـه ناصعًـا: «المـال». من السّـهل تصديـق كلامه، فالمسـؤولون اللّبنانيّـون معتـادون الدنـاءة أي بيـع بلادهـم مقابـل حفنـة مـن الـدّولارات. لـم يكـن أحـدٌ يتوقّـع أنّ هـذه المناوشـات المتقطّعـة ستسـفرُ عـن حـربٍ تطـول زهـاء خمسـة عشـر عامًـا. كان أهلـي مثـل بقيَّـة المواطنيـن يقولـون: «بعـد شـهرٍ سـينتهي كلُّ شـيء». بعـد خمسـةَ عشـرَ يومًـا مـن وصـول أهلـي إلـى باريـس أقفـل مطـار بيـروت، ولعلـع الرّصـاص فـي حرمـه. دخـل ثلاثـة

مسـلّحين مدجّجيـن بالأسـلحة الرّشاشـة حرمـه وأطلقـوا العنـان لرصاصهـم. كانـت الحصيلـة قتيليـن وسـتةَ عشـرَ جريحًـا. هـل كان الهـدفُ خطـفَ طائـرة أو تفجيـرًا ما؟ لا أحـد يعـرف. ككلِّ الحوادث الّتـي وقعـت فـي لبنـان خـلال تلـكَ الفتـرة كانـت غايـةُ العمليَّـات مجهولـةً وفاشـلة. كان بعـض المختلّيـن عقليًّـا والمشـعوذين فدائيـي يـوم الأحـد يتحوّلـون فجـأةً إلـى مقاتليـن فـي ميليشـيات مـن صنـع أيديهـم، يأخـذون فيهـا القـرارات وحدهـم دون أيِّ تحضيـر ويقحمـون أنفسـهم فـي معـارك مسـلّحة.

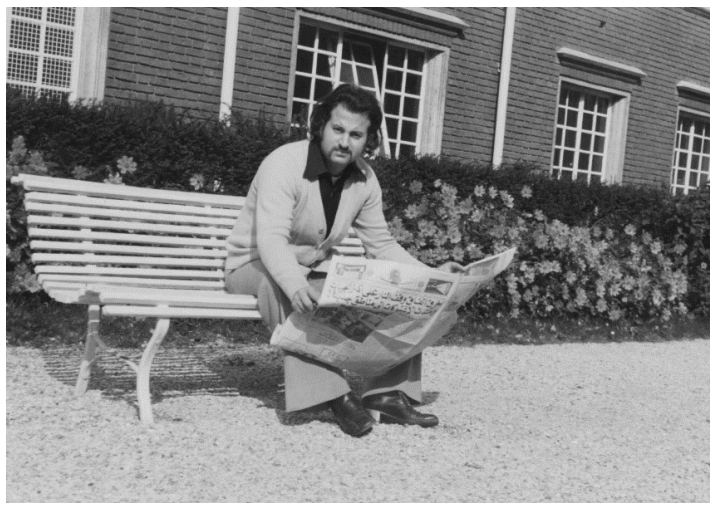

إنّـه أبـي الّـذي أعلـن لأمّـي خبـر تسـكير المطـار؛ يذهـب كلَّ يـوم إلـى البيـت اللّبنانـيّ فـي المدينـة الجامعيـة للحصـول علـى الجرائـد العربيّـة.

وحيـن يرجِـع إلـى الشّـقة يخبـرُ أمّـي بعـض أخبـار البلـد. حيـن

سـمعَتْ عـن إقفـال المطـار انهـارَتْ وانهـار «مـوّال» سـفرها إلـى لبنـان عـدّة أيـام كـي تـرى أهلهـا قبـل عيـد الميـلاد. خـاب أملهـا فغمرهـا أبـي بيـن ذراعيـه قائـلًا لهـا: «فـي السّـنة المقبلـةِ سـينتهي كلّ مـا ترينـه اليـوم». والسّـنة صـارت سـنوات.

أبي وأمّي في باريس | ١٩٧٥

يتصيّـد أبـي الجرائـد مـن المزابـل العامّـة بواسـطة عصـا صنعهـا مـن قطعـة خشـبيَّةٍ وخيـطٍ وإبـرة خيَّاطـة معكوفـة. يسـرق الكتـب مـن مكتبـة «جيلبيـر جـون» «أكثـر مـن مئـة كتـاب» هـذا مـا أكّده لـي. يحكـي لـي دائمًـا الطّرفـة ذاتهـا، وهـي أنّـه تنـاول مـرّة شـقعة مـن الكتـب مـن الرّفـوف وخـرج دون أن يدفـع، فاقتـرب منـه رجـل أمـن وربَّـتَ علـى كتفـه اليمنـى: «إلـى أيـن أنـت ذاهـب؟ اتبعنـي!»

كان الرّجـل طويـلًا، أكثـر مـن مترين. مشـى أبـي خلفـه إلـى الطّابـق الأرضـي دون كلمـة حيـث وجـد نفسـه فـي مخفـر.

- ماذا كنت تنوي أن تفعل بهذه الكتب؟

- بهذه الكتب؟

- نعم يا سيّد.

- كنـت أنـوي أن أُرِيَهـا لزوجتـي الواقفـة فـي الجهـة الأخـرى مـن الشّـارع. هـل تعـرف أنّ «اختفائـي» قـد يصيبهـا بالجنـون والحـزن، وأنّهـا سـتتصل علـى الأرجـح بالشّـرطة؟ وأنتـم هنـا غـبّ الطلـب!

- هل تضحك عليّ؟

- لا أبدًا. لنصعد الآن معًا من فضلك.

أمّا أمّي الّتي أضاعت زوجها، فطلبت من أحد البائعين أن ينادِيَ اسمه على المكبّر كأنّه ولد عمره أربع سنوات. كنّا نسمع في المكتبة ما يلي: «السّيّد قيصر غصوب مطلوب على الاستقبال، السّيّد قيصر غصوب!» وحين شاهدتْ أبي بدأت تولول: «أين كنت يا قيصر؟ أين كنت؟ أبحث عنك منذ ساعة!» عندها تمنّى رجل الأمن لو أنّ الأرض تنشقّ وتبلعه. حاول أبي أن يهدّئ من رَوْع أمّي: «اهدئي، أردت أن أُرِيَكِ هذه الكتب في الشّارع فظنّوا أنّني سأسرِقُها». بدأ صراخ أمّي يتعالى أكثر فأكثر إلى درجة أنّ الكتب صارت تتساقط عن الرّفوف: «لا، لا، هل أنتَ مخبول؟ زوجي يسرق؟! ألأنّه يحمل بين كتفيه رأسًا عربيًا، أو رأسًا تركيًّا حسبما تفكّرون؟! يا عيب الشّوم عليكم! يا عيب الشّوم!» أخذت الكتب من يديْ أبي ورمتها على الأرض: «خذوا كتبكم، لا نريدها! على كلِّ حال نحن نختنِقُ داخل مكتبَتِكم، نختنق! لا يدخلها شعاع نورٍ. لا أفهم كيف أنّ زوجي يتحمّل أن يبقى فيها عدّة ساعات».

إلى جانب الدّراسات الّتي يتابعها في السّوربون يعمل أبي كثيرًا فهو صحافيٌّ ثقافي في بعض المجلّات العربيّة، ثُمَّ إنّ جامعة القديس يوسف في بيروت عيّنته في إدارة مركز الأبحاث والدّراسات العربيّة «لو كريا» لتدريس العربيّة للرّاشدين.

ينتقل من شقة إلى شقة، يعلّم رؤساء الشّركات الفرنسيّة الكبرى الأبجدية. ألف، باء، تاء، ثاء، وتلاميذه يتعثّرون دائمًا بالأحرف ذاتها. لا يستطيعون أن يلفظوا حرف «الرّاء» دون لدغته الفرنسيّة، ولا أن يتنحنحوا بحرف «الحاء» الّذي يصدر من الحلق.

«بسرعة وجد أبوك عالَمَه، يتحرّك كثيرًا ويلتقي أُناسًا كثيرين. أمّا أنا فكنت أشعر بأنّني وحيدة»... تسجّلت والدتي في السّوربون لدراسة الجغرافيا. ولكنّها ووالدي كانا في حاجة إلى مدخول، لدفع إيجار الشّقة مثلًا، ولو أنّ الأهل يرسلون إليهما مبالغ بَيْدَ أنّها لا تكفي، لذا أخذت تبحث بحثَ المستميت عن عملٍ.

لم تكن لتفهم خرائط المترو: الخطوط والتّحويلات وقاطع التّذاكر؛ في لبنان تنقّلت دائمًا بالسّيارة. أبوها يعيرها سيّارته. كان من أوائل اللّبنانيّين الّذين اشتروا سيارة. رقم لوحتها يثبت ذلك هو «٣١٠١». وقد وُضِعت هذه اللّوحة على سيارتي الأولى في لبنان. أذكر أنّني في محطة وقود قرب ضيعة أمّي، اقترب منّي رجل عجوز عند رؤيته رقم اللّوحة «٣١٠١» وقال لي: «أنتَ حفيد توفيق؟» ثمّ ضمّني إلى صدره قبل أن أجيبه. كانت موسيقى الستّينات المصرية تصدح من مذياع محطة الوقود. يكفي أن أغمضَ عينيَّ كي أتخيَّل أنّني أسير في مشهد فيلم من أفلام المخرج الألماني ـ التّركي فاتح أكين، حيث تكتنفُ عودة شابٍّ من أبطاله إلى قريته صُدَفٌ سحريّة.

الكلوشار أو صعاليك باريس هو ما شاهدته أمّي أوّل مرّة في حياتها، ففي لبنان لم يكن جائزًا أن نترك أقرباءنا يتسوّلون. هناك دائمًا ابن عمّ أو عمّ أو قريب، ليتلقّفَ هذا المسكين ويساعده أو يلجِئَه أو يجدَ له عملًا. حين تخبرني أمّي عن هذا اللّبنان، أتحقق كم أنّ البلد الّذي عرفَتْهُ قد تغيّر. نصادف الآن شحاذين شبابًا أو عجائز لبنانيّين أو سوريّين نساءً أو رجالًا في كلِّ ناصية من شوارع بيروت.

أمّي تشتاق إلى أمّها بشكل قاسٍ، اعتادتا الألفة، وهذا البُعادُ جُلجُلة. فقدَتْ أمّي نجيّتَها، صديقتَها الحميمة، شقيقةَ روحها. تكتب لها رسائل تستهلّها بـ«ماما حبيبتي»، وتستكملُها بعبارات حبٍّ وكلماتٍ بليغةٍ ومؤثّرة. تبكي أمّي يوميًّا لأنّها تعيشُ بعيدةً عن أهلها، عن بلدها. آخر همّها حياتها الباريسيّة.

صديقاتها في لبنان يكتبن لها: «حظّك كبير لأنّك تعيشين في باريس». كانت تودّ أن تجيبهنّ: «اخرسن، إنكنّ لا تفهمن شيئًا». كلّ ما كانت تتمنّاه هو العودة إلى أحضان أبيها، إلى دردشاتٍ وقهوةٍ مع أمّها، وأن تستعيد أرضَها وشمسَها وبحرَها. في خيالها، باريس رائعةٌ وجميلةٌ كالأفلام الفرنسيّة القديمة الّتي كانت تشاهدها في بيروت مع أبيها. تشبه باريس فيلمًا عنوانه: «يحدث فقط للآخرين» للمخرجة نادين ترنتينيان الّذي شاهدته عدّة مرات في سينما «الدورادو». كانت تتوقّع أن ترى نساءً ورجالًا أنيقين مثل مارسيللو

ماسترويانى وكاترين دونوف، وسيارات برّاقة وشوارع نظيفة ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك.

«باريس وسخة يا سبيل، والدّليل المترو، منه تفوح رائحة كريهة»، أردفت أمّي: «رائحة نتنة إضافة إلى عرق النّاس وهواء المجاريـر المقيت. هل تعرف ماذا فعلتُ كي لا تخنقني هذه الرّوائح؟ عطّرت شالي بالياسمين وثبّتُّه على أنفي طوال الرّحلة». فكّرتْ أمّي حينئذ في أزهار حقول قريتها، في شجيرات الحامض والبرتقال والأفندي حول بيتهم قرب بيروت.

تساءلت: من يتحمّل العيش في باريس؟ «هذه ليست بحياة» سمعتها تردّد.

كانت تعبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها لشراء السّمّاق وحبّ الهال والزّعتر. كل هذه التّوابل الّتي كانت تجدها في كلِّ مكان في لبنان، وجدَتها فقط في بقالة «إسرائيل» الواقعة في منطقة لو ماريه بباريس.

ساعة تسديد الفاتورة كانت تشتمهم بالعربيّة: «صهاينة» لا يفهمون ما تتفوّه به.

تشطب أمّي الأيّام كلّما انقضت عن روزنامتها بالقلم الأسود. كلّ مساء قبل أن تخلد إلى النّوم تكرِّر هذه الحركة.

طابت باريس لوالدي. ففي وَقْتٍ قليل، وبفضل المركز العربيّ (كريا)، أضحى مترجمًا تعتمده شركات كبيرة. مؤسسة إيف سان لوران مثلًا، يقصدُ مقرّها الرّئيسي في جزيرة الجات مرّة في الأسبوع؛ في المكاتب «نساءٌ فقط ورجلٌ يُحِبُّ الرجال».

هـذه الأجـواء أفرحتـه. كان يسـرق الشّـوكولا الأسـود مـن مقهـى سـباق الخيـل الواقـع علـى ناصيـة الشـارع ليقدّمهـا لزملائـه. ولكـي يراضـي أمّـي كان يغـدق عليهـا ممـا يصـل إلـى يـده مـن عيّنـات عطـور.

يتنـزّه أهلـي كثيـرًا فـي باريـس، وتطلـب أمّـي مـن أبـي أن يصوّرهـا أمـام الصّـروح والتّماثيـل وحدائـق المدينـة. تحـبّ أن نصوّرهـا جالسـة فـي جنائـن الأزهـار لأنّ هـذه المشـاهد تذكّرهـا بضيعتهـا وأبيهـا. حيـن تراهـا تركـض وتتمـدد وتصيـح: «قيصـر، يـا قيصـر، صوّرنـي صـورة!»

والـدي يكـره التّصويـر إلـى درجـة أنّـه لا يتحمّـل أن تبقـى هـذه الآلـة بيـن يديـه، هـو لا يفهـم لمـاذا يحتـاج النّـاس إلـى تخليـد هـذه المشـاهد فـي صـور. الكلمـات هـي كلّ مـا يهمّـه، ولكنّـه لشـدةّ ولعـه بأمّـي ينصـاع لهـا. هـي حلـوة وسـمراء، عيناهـا سـوداوان تبهـران الرّجـال. كتـب لهـا ديـوان شـعر عنوانـه: «لمـن ترتـدي عينـاك السّـواد؟» ومـع أنّ بشـرتها بهتـت حيـن غـادرت لبنـان، ظـلّ أبـي معجبًـا بجمالهـا، فهـو بـلا شـكٍّ محظـوظ أن يجـد إلـى جانبـه صباحًـا وظهـرًا ومسـاءً هـذه المـرأة البالغـة الجمـال.

أتعس عيد ميلاد في لبنان | ١٩٧٥

مـا إن أُعيـد افتتـاحُ مطـار بيـروت حتـى رجَعَـت أمّـي إلـى لبنـان. لـم تكـن قـد وجـدت عمـلًا بعـدُ؛ تأمّلـت أن يدعمهـا صديـق خالهـا القديـم المسـؤول الكبيـر ذو الأصـول العراقيّـة.

خـال أمّـي كان ممثـلًا للحـزب التّقدمـي الاشـتراكيّ فـي منطقـة الشّـمال فـي لبنـان، وبفضـل موقعـه كانـت لـه علاقـات مـع نصـف البلـد. وفيمـا يخصّـه كانـت أمّـي تختتـمُ جملهـا عنـه قائلـةً: «خالي كلّ العالـم بيحبّـوه مـن القـروي حتـى مختـار الضّيعـة».

وأنـا أقلّـب صـوره لاحظـتُ أنّـه يشـبه الشّـاعر التّركـي ناظـم حكمـت. يرتـدي علـى الـدّوام بدلـة بثـلاث قطـع، يمشّـط شـعره إلـى الـوراء، أنفـه طويـلٌ ودقيـقٌ وعينـاه الزّرقـاوان تفيضـان دهـاءً. فـي البيـت العائلـي فـي قريـة أمّـي لـه صـورة كبيـرة بالأسـود والأبيـض معلّقـة علـى جـدار المدخـل. بعـد الحـرب بسـنوات أعـاد الياس بنـاء هـذا البيـت، هـذه الغرفـة شـبه المهدّمـة حيـث شـبّ والـده... بمـال مجهـول المصـدر عمّـر مـع أخيـه حبيـب قصـرًا ذا هندسـة هذيانيَّـة، زيّنـه بدمًـى إفريقيَّـةٍ وصـورٍ ضخمـة لماركـس ولينيـن وتماثيـل للسّـيدة العـذراء. قصـرٌ يوحـي أنّنـا مـن طبقـة الأثريـاء فـي حيـن أنَّ حسـابات كلِّ واحـد منّـا المصرفيّـة مكشـوفة. لـم يختـر الياس لبيتـه البـلا رأسٍ ولا ذنـب حيـث أمضيـتُ أغلـب عطـلات مراهقتـي وطفولتـي، نمطًـا معماريًّـا لبنانيّـا كـي لا يبـدوَ «بورجوازيًّـا كبيـرًا» كمـا كان يـردّد.

قبـل إتمـام هـذا الصّـرح، كنّـا نقيـم فـي بيـت قـرب بيـروت ونذهـب لتمضيـة يـوم فـي قريتهـم قـرب البحـر فنمـلأ صنـدوق السّـيارة وكأنّنـا نسـتعدّ لمغـادرة البـلاد دون رجعـة. فـي ركـن مـن الحديقـة المزروعـة أقامـت العائلـة نصبًـا للخـال، يجتمعـون حولـه للتّأمّـل أو بالأحـرى لشـرب القهـوة الصّباحيّـة علـى مقاعـدَ حجريّة.

إعجابهم بهذا الرّجل كان دائمًا يُربكني. لم أعرفه، فقد مات قبل الحرب اللّبنانيّة بسنة، عام ١٩٧٤. «لحسن الحظ، رؤية انهدام البلد بهذا الشّكل فوق قدرته على الاحتمال»، تضيف أمّي. سألت أمّي هل من الممكن أن أعرف عنه أكثر، وأنهيت سؤالي قائلًا: «أتعلمين يا أمّي أنّني لا أحبّ خالك أو بالأحرى لأقل إنّه لا يعني لي شيئًا».

غضبت أمّي ووجّهت كلامها إلى أبي: «لماذا لا يحبّ ابنك خالي؟ لماذا؟»

لمتُ نفسي لمّا تفوّهت بهذه العبارة، ولكن صراحة، أقول: «لا أقدّر خالها كثيرًا». ما أعرفه عنه قليلًا. أعرفُ أنّ جدّي لأمّي سدّد ديونه بعد وفاته، هذا ما حكته لي أمّي.

لذا أمْتَعِضُ حين أرى بعض أفرادِ عائلتي يحترمون من هم مثل هذا الرَّجل. أفضّل لو أنّهم أقاموا نُصبًا لجدّي. لكان هذا أكثر صوابًا.

- لا تقُل هذا، أجابني والدي، أنت لا تعرفه، كان إنسانًا طيّبًا، عصاميًّا، يتحدّر من عائلة لا تملك شروى نقير. نجح في دراسته بباريس في الخمسينات وبعد رجوعه إلى لبنان صار صحافيًّا ثمّ امتهن السّياسة. أفكارُه سابقةٌ لعصره. معلّمًا كان وفي الوقت نفسه قدّم الكثير لقريته، أسّسَ مدارس ومستوصفًا وأشياء أخرى.

- نعم، ولكن كان يعيش بدون مال، أردفت أمّي. راتبه كمعلّم لا يساوي شيئًا. عاش ظروفًا صعبة. كان أبي يساعده وقد أقمنا

لـه هـذا النّصـب لأنّـه كان آخـر سـلالتنا. لـن يبقـى بعـده أحـد مـن عائلـة يعقـوب. يعقـوب هـو اسـم عائلـة أمّـي، أتعـرف هـذا؟ كنّـا نحـبّ أن نتـرك ولـو أثـرًا لعائلـة أمّـي فـي هـذه الأرض وفـي هـذه الضّيعة والسّـلام!

خـلال إقامـة أمّـي فـي لبنـان، ذهبـت إلـى طرابلـس فـي الشّـمال لتلتقـي العجـوز العراقـي صديـق خالهـا. وصلـت إلـى هنـاك برفقـة أبيهـا وإحـدى عمّاتهـا. وهمّهـا أن تحصـل علـى مكتـوب منـه يسـاعدها علـى أن تجـد وظيفـةً فـي السّـفارة العراقيَّـة بباريـس. لـم تـزل والدتـي تحافـظ علـى هـذه الرّسـالة، حفاظهـا علـى بؤبـؤ العيـن، داخـل جـارور طاولـة بجانـب السّـرير. فـي طريـق عودتهـا، عنـد مغادرتهـا طرابلـس، أوقفهـم حاجـزُ تفتيـش لإحـدى الميليشـيات الموالیـة للفلسـطينيّين. حـاول أبوهـا أن يقنعَهـم بأنّـه يعـرفُ عـددًا مـن القـادة الفلسـطينيّين، وأبـرزَ لهـم عشـرات الأوراق، غيـر أن الميليشـياويين صوّبـوا بنادقهـم نحـو وجهـه وأجبـروه علـى الخـروج مـن سـيارته. فـي هـذا الوقـت تعرّفـت عمّتهـا إلـى أحدهـم وهـو أنطـون، الصّديـق القديـم والعزيـز لابنهـا اليـاس السّـاكن فـي الطّابـق نفسـه، فنادتـه مولولـة: «أنطـون! أنطـون!» فجاوبهـا: «مـاذا تفعليـن هنـا يـا جارتـي؟ مـاذا تفعليـن هنـا؟ يجـب أن ترحلـوا الآن وبسـرعة! بسـرعة». فقـام جـدّي والـد أمّـي وأدار سـيارته وانطلـق.

ولكـن فـي هـذا اليـوم، يـوم ٦ كانـون الأوّل مـن العـام ١٩٧٥ بـدأ «السّـبت الأسـود»، سـبت دمـويٌّ دام أسـابيع. قُتـل ابـن أحـد

المسؤولين السّياسيين الكتائبيّين، فأقام حاجزًا على الطّريق وأعدمَ الكثير من المسلمين المدنيِّين. تقولُ الرّوايةُ إنَّ أكثر من مئتي مسلم لقوا حتفهم في هذا اليوم.

هكذا تحوّلت الحرب بين الفلسطينيّين وأنصارِهم والكتائبيّين إلى حرب دينيَّة، فانخرط الميليشياويُّون بكلّ أطيافهم في هذه المعارك يغربلون من يصادفون من أشخاصٍ بحسب طائفتهم المدوّنة في هُويَّاتهم. فالمارّون الّذين أوقفوا بلا ذنب يُذكر أعدموا على الفور.

هكذا استطاعت أمّي، دون علمها، أن تُنْقِذَ نفسَها وأباها وعمَّتها من الموت المحدق. فبعد هذا الحادثِ دارت الحرب دورة مختلفة؛ عشرون عامًا بعد «السّبت الأسود»، عنونت جريدة «لوموند» الفرنسيّة:«أتعس عيد ميلاد في التّاريخ اللّبنانيّ». وبدأتِ المقالة هكذا: «أمضى اللّبنانيّون هذا العام أتعس عيد ميلاد في تاريخ بلادهم، كان يومًا رهيبًا: خطفٌ وخطفٌ مضاد قاما على أساس الانتماءات الطّائفية، واستمرّ هذا اليوم الّذي عرف أكبر حملات خطف الرّهائن في الحرب الأهلية».

بقيت أمّي محبوسة مع عائلتها في بيتهم بضاحية بيروت. ظلّ الباب مشرعًا يشهدُ على قدوم النّاس ورحيلهم طيلة اليوم، صباحًا وظهرًا ومساءً. فالآتون أصدقاء وأفراد العائلة منهم من يشرب القهوة أو الشّراب أو يأكل، فالحرب زادتْ شراسةً، وما هنيهات الحياة هذه سوى بلسم خفيف على قلب أمّي. اجتاحتِ الكآبة أبي، لأنَّ زوجته في لبنان. يقصِدُ

كلَّ يـوم أكشـاك الهواتـف العموميّـة لكـي يتصـل بهـا ويطمئـنَّ إليهـا (وأحيانًـا كثيـرة لا يتمكّـن مـن ذلـك). لا يضجـرُ أبـدًا وحـدَه فـي باريـس، فالمسـارح والحدائـق والمكتبـات تُغنيـه، وقـد حصـل علـى بطاقـة صحفيَّـة تخوِّلُـه دخـول المسـارح مجانًا، وحيـن لا يجد شـيئًا يهمّـه، يتوجّـه إلـى مسـرح «لاهوشـيت» ليشـاهد مسـرحيات يونيسـكو، تلـك الّتـي كانـت تُمَثَّـل للمـرّة الألـف، وكان يهـوى مقطعًـا مـن مسـرحية «الأمثولـة» يـرى فيـه كلّ فلسـفة الحيـاة: «إنّكـم معتـادون الجمـع ولكـن الطّـرحَ مهـمٌّ أيضًـا. الاندمـاجُ إنّ لـم يسـبقه اقتـلاع لا قيمـة لـه. هـذه هـي الحيـاة. هـذه هـي الفلسـفة، هـذا هـو العلـم، هـذا هـو التّقـدّم والحضـارة».

فـي طريـق عودتهـا إلـى باريـس رأت أمّـي حريـق الدّامـور بكنائسـها الخمـس ومصلّياتهـا الثّلاثـة. لـن تنسـى هـذا المشـهد مـا حَيِيَـتْ. شـاهدت دخـان المدينـة مـن شـبّاك الطّائـرة ففهمـت أن مجـزرة واقعـة بـلا ريـب. فـي كلّ مـرّة تـروي لـي فيهـا هـذه القصـة تَغْـرَورِق عيناهـا بالدّمـوع.

خـلال يوميـن، وقعـت مجزرتـان فـي لبنـان. الأولـى فـي الكرنتينـا، وهـي كنايـة عـن مخيّـم بأغلبيـة مسـلمة تسـيطر عليـه قـوّات منظّمـة التّحريـر الفلسـطينيّة، ويسـكُنُه الفلسـطينيّون والمهاجرون. اسـتولت عليـه الميليشـيات اللّبنانيّـة، وخلّفـت مجـزرةً سـلبتْ مـن سـتّمئة إلـى ألـف شـخصٍ أرواحهـم. وبعـد يوميـن قـام الفلسـطينيّون بمحاصـرة قريـة الدّامـور المسـيحيّة قاطعيـن عنهـا المـاء والمـواد الغذائيَّـة والكهربـاء، مانعيـن الصّليـب الأحمـر

مـن دخولِهـا لإخـراج الجرحـى. انهمـرت عليهـا القنابـل المدفعيـة بكثافـة. ووصلـتْ أعـدادُ القتلـى إلـى أكثـر مـن خمسـمئة. قـال أبـي: «يصفّـون النّـاس أمـام الحيطـان، وبـوم بـوم بـوم».

أولاد الحرب في لبنان | ١٩٧٦

بعـد أيـامٍ مـن هـذه المجـازر، وجـدتِ المخرجـة اللّبنانيّة جوسـلين صعـب أولاد الكرنتينـا النّاجيـن. صوّرتهـم وهـم يتحاربـون بالعصـي الخشـبيَّة والحجـارة وأخـذت تتلـو والصّـور تتتابـع: «هـؤلاء الأولاد اللّبنانيّـون يتظاهـرون بلعبـة الحـرب مثـل كلّ أولاد العالـم. يُقَلِّدون معـارك الشّـوارع كغيرهـم الّذيـن يقلّـدون فـي ملعـب المدرسـة حـركات أفـلام «الوسـترن»، الّتـي شـاهدوها البارحـة علـى التّلفـاز. ولكـن هنـا مـا مـن ولـد لـم يخسـر أبًـا أو أمًّـا أو أخًـا أو أختًـا. فهنـا لا يقومـون بتمثيـل فيلـمٍ خيالـيٍّ، بـل يلعبـون الحقيقـة اليوميَّـة البيروتيّـة. يلعبـون دور الكتائبيّيـن ضـدّ اليسـار والفلسـطينيّين. هـؤلاء ليسـوا برعـاة بقـر ضـدّ الهنـود الحمـر. كلُّ أسـلحتهم تشـبه بعضهـا بعضًـا، ولكنّهـم يعرفـون الفـرق بيـن سـلاح «الكلاشـنكوف» و«الدّيجيتاريـف» و«السّـيمينوف». بعـض التّفاصيـل وبعـض المواقـف والتّصرّفـات الدّقيقـة تنسـي المُشـاهِدَ أنّهـا ألعـابُ أولاد. تتـراوح أعمارهـم بيـن سـتة واثنـي عشـر عامًـا. يكـرّرون طـوال النّهـار تلـك المشـاهد الفظيعـة الّتـي رأوهـا بـأُمّ أعينهـم».

أبي هذا الأستاذ الشّتّام | باريس | ١٩٧٦

منـذ أن صـار أبـي أسـتاذًا فـي السّـوربون وإدارة الجامعـة تتلقّـى الشّـكاوى ضـدّه مـن الطّـلاب وأهلهـم. ففـي كلِّ صـفٍّ مـن الصّفّين كان أبـي يشـتم ربّـه والأديـان التّوحيديّـة الثّلاثـة، فمـا كان مـن مديـر الكُلّيـة إلّا أن رجـاه أن يتوقّـف عـن هـذا السِّـباب، وإن كان لا بـدّ منـه فليدّخـره لحواراتـه فـي المقهـى أو فـي مقالاتـه لا فـي الحـرم الجامعـيّ. ثُـمَّ إنّ المديـر قـد وجّـه إليـه ثلاثـة إنـذارات، غيـر أنّ أبـي لا يقـوى علـى ضبـط لسـانه، لسـانه سـبّاق أبـدًا. كان ينعـتُ الرسـول بـ«المـزواج»: هـذه هـي الحقيقـة ولهـذا أقولهـا، موجّهًـا كلامـه إلـى المسـؤول. فقـام بطـرده.

أمّـا أبـي فقـد كان فخـورًا بهـذا الطّـرد مـن الجامعـة مثـل مراهـق. وقـد أخبرنـي هـذه الطّرفـة أكثـر مـن عشـر مـرات قبـل بدايـة تسـجيلاتنا. وقـد اسـتوحيت هـذه القصـة فـي روايتـي الأولـى، «الأنـف اليهـودي».

بعـد صدورهـا دسسـتُ نسـخة منهـا فـي علبـة بريـد أهلـي. ظـلّ والـدي طيلـة اللّيالـي التّاليـة لا ينـام. لا أزال أذكر مكالمـة والدتي: «سـبيل، أبـوك عنـده غثيـان. يتقيـأ فـي كلِّ مـكان منـذ أيـام. لـم يعـد يذهـب إلـى المكتـب، عليـك أن تعالـج الأمـر!» كان أبـي متأكـدًا أنّ الإسـلاميين سـيهتدون إليـه ويقتلونـه وسـط الشّـارع. كذلـك سـيكون مصيـري. لـم يجـد مـن حيلـة سـوى مهاتفـة ناشـر كتابـي دون أن يبلِّغنـي مخطّطـه، واقتـرح عليـه تمويـل ثلاثـة آلاف نسـخة جديـدة تُحْـذَف منهـا الجملـة المتعلّقـة بالرّسـول.

طبعًا رفض الناشرُ الفكرةَ وحاول تهدئة روع أبي ما أمكن.

مراسلات بين باريس وبيروت | ١٩٧٦

وجدت في كراتين العائلة مئاتٍ بل آلافَ الرّسائل بين أمّي وأقاربها طوال حقبة الحرب.

كانت أمّي تكتب بالرّيشة بحبرٍ أسود في أوراق سميكة عاديَّة النوع زرقاء. تنتقل من الفرنسيّة إلى العربيّة دون أيِّ منطق. وقد اجتاحت هذه المراسلات شقّتي الصّغيرة، فلم أعد أعرف أين أضعُها. دسَسْتُها في علب قديمة للأحذية تصطاد الغبار قرب باب المدخل. عند قراءتها، ظنَنْتُ أنّني سأجِدُ أجوبةً عن أسئلةٍ طرحتها على نفسي. ماذا فعل أعمامي وعمّاتي طيلة هذه الحرب؟ هل حمَلوا السّلاح؟ هل قتلوا ناسًا؟ هل أنقذوا فلسطينيّين أم مسيحيّين؟ وبدلًا من ذلك وجدتُ كلمات عن الكآبة والخوف، وقرفهم من لبنانيّتهم.

ففي رسالة مؤرّخة عام ١٩٧٦، كتبتْ صديقة لأمّي كم أنّ الحياةَ تعيسةٌ في لبنان: «الحياة غالية جدًّا، خاصةً في حيّنا. ينقصنا الخبز، وأحيانًا نفتقده تمامًا. أغلقتِ الجامعةُ الأميركيَّة في بيروت أبوابها موقَّتًا، ولا أعرف هل كان في إمكاننا المتابعة أو البَدْء بفصل ثانٍ. أهلي غاضبون جدًّا. في كلِّ مرَّة يُطِلُّ فيها علينا أملٌ صغيرٌ، تعود الاضطرابات فيندَثِر الأمل. يُقبِل عيد الفصح ونحن لا نشعُر بمرور الأيّام. كيف نُعَيِّدُ؟ تمضي الأيام دون أيِّ تغيير، ونحن منهمكون بالفراغ أيَّ فراغ. أشعرُ بأنّ

قلبي وروحي فارغان، حتى أفكاري فارغة. هل تعرفين؟ قرأت أنّه في هذه السّنة وحدها أُدْخِلَ عشرةُ آلاف مريض إلى المصحّات العقليّة. هؤلاء لم يسمعوا طوال يومهم سوى دويّ الانفجارات والقنابل. الجنون ينتظرنا وهو يسابق الموت. لا تجزعي يا حنان، اعتدنا كلَّ شيء. سنصير بعد الحرب أبطالًا. أليس كذلك؟»

والأعجب، أنّني حين أقرأ هذه الرّسائل بعد أربعين سنة، فكلّ أصدقائي وأهلي يُردّدون الكلمات ذاتَها على الواتس أبّ و«الميل» ليصفوا الحياة في لبنان: قلّة المال والخبز، والتّضخّم المجنون وفقدان الأمل تجاه هذه الأزمة.

هذه الصّديقة نفسها، قلقة ومنهكة بسبب الحرب، كتبتْ لها أخيرًا: «نستحي أن نقول إنّنا لبنانيّون لكوننا وحوشًا وخبثاء وأنانيين ودمًى متحركة. إنّ الأحزاب السّياسيَّة الّتي تصادقت وحاربت معًا حزبًا آخر، تحارب الآن بعضها بعضًا».

أمّا أبي، فعلى نقيضها، لم يرسل أبدًا بريدًا إلّا إذا طلب منه أحدهم (وبواسطة والدتي) أن يترجم قصيدة إلى العربيّة. عندها كان ينكبّ عليها وبخطّه الجميل يكتبها بحبر أسود. لقد وجَدْتُ إحدى ترجماته وقد أدهشني خطُّه، فهو يشبه كتابة أدباء نرى مراسلاتهم معروضة في المتاحف. فهم يستشعرون أنّ أقلّ نأمة أو حركة تصدر عنهم ستشرح بعد غيابهم، لذلك يدقّقون حين يكتبون إلى أصدقائهم أو ناشريهم أو عائلتهم. كثيرًا ما يكون خطّهم فخمًا، فحروف